زهرة بانسيه

مريم ميرزاده

جلست ميريلا ذاك اليوم، في غرفتها ذات الشرفة المطلّة على الهضبة الخضراء في مهريز، تحيك أوّل سجادّةٍ صوفيّة. الفصل شتاء، الشهر ديسمبر، السنة ليست مهمّة. للقارئ رغبته في تدوين لحظة وجود الشخصيّات وتأريخ أحداث هذا اليوم.

البيت كبير، غرفه متعدّدة، لكنّه كان نوعاً من محاولة إرضائها، أن اختاروا لها هذه الغرفة، يعرفون تَوقَها الخاصّ إلى الشرفات. تسبّب لها الأبواب المغلقة تسارعاً في دقّات القلب وشيئاً ما يسمّونه رهاب الأماكن المغلقة. لكنْ واضح أنّ البشريّة سارت قبلها وكلّ من كانوا يعانون مشكلتها نفسها ما زالوا أحياء. شيءٌ ما يبدو أنّه ولد معها، يشعرها بتآمر الجدران على أنفاسها فقط، وقد تنقض عليها منتصف الليل وهي راقدة، من يدري! ميريلا لا تحبّ الجدران، لطالما رسمت عليها بيوتاً بقرميد أحمر وقمماً خضراء وأنهاراً .. وورداً. لكنّ الجدران لا تتخلّى عن صلابتها! برغم أنّها بعد انتهائها من رسمها تحدّق إلى الجدار بحنان، وتتبسّم بخيبة. لطالما نالت من اللوم ما كان وفيراً من والديها وهي صغيرة لإفسادها سلامة الجدار.. لو كانت مخطئة أو مجنونة، كما تشعر بانطباعهم ونظراتهم، لكان السلطان عباس الصفوي أكثر المعقدين نفسيّاً، ولكان الفنّان الذي رسم تلك اللوحات المخلّدة فوق جدران «جهل ستون»* وأسقفها.. كبيرَ مُختلّي أصفهان عقليّاً!

> «لا تجزع من جرحِك.. وإلّا فكيف للنورِ أن يتسلّلَ إلى باطنِك..؟ »
>
> جلال الدين الرومي

لا بأس، ستواجه الكثير من شبه هذه الأفعال، إن رغبت في المضيّ خلف أحاسيسها.. هذه الخيوط الذهبيّة المغزولة تحت جلدها، التي تجعل لها حواسّ إضافيّةً لكلّ حاسّةٍ طبيعيّة من الخمس المعروفة. كما لكلّ كوكبٍ سيّارٍ أقمارٌ عديدة. تدور أحساسيها حول حواسّها.. المجرّةُ روحُها!

تسارع ميريلا نحو النوافذ والشرفات مذ كانت طفلة.. ليعود المدى أمام عينيها لا متناهياً. هي تحبّه هكذا! هكذا تكون في سلامٍ مع أفكارها التي تشبه كرةً من صوف تعبث قطّةٌ مشاغبة بها، القطّةُ قلبُها!

منذ عامين اختارت الانضمام الى معهد تعليم حياكة السجّاد.

ميريلا منذ قدوم أسرتها من طهران، بدأت بتعلّم الحرفة. تشغلها قليلاً عن التفكير بنقمتها على والديها بسبب خيارهما اعتزال حياة العاصمة. لم يكن سهلاً عليها اقتلاع جذورها التي يراها أبواها أمتعةً وكتباً ليس إلّا.. من ذاك المكان. حتّى أنّها لا تدري ما إذا أتت بكلّ أغراضها.. هناك كتابٌ مفقود منذ قدومها لم تعثر عليه. لكنّها تستبعد احتمال

تركه هناك، وعدّته حين أهداها داوود قصائد سهراب المختارة، أن تحتفظ به دائماً. تتجاهل أمّها أمر الصناديق الكرتونيّة التي لا تزال في قبو البيت. الصناديق تحوي كراكيب لكنّ ميريلا شبه متيقنة أنّ الكتاب هناك! لحسن حظّها أنّه لم يكتب اسمه أو أيّ إهداءٍ على صفحته الأولى، لهذا لا تقلق إذا عثرت أمّها عليه. قرأته عدّة مرات. ليست القصائد مهمّة. لكنّها تخاف إذا طال غياب الكتاب، أن يتلاشى في غبار الورق، ذاك الشيءُ الذي يشبهه، تلك الذرّات التي كانت تخاطبها من بين السطور.. ما زالت تفكّر في جنسها، ما نوع ذاك السحر الأخّاذ. هل يغيب إذا طال عمر الكتاب؟ أو عمرها؟

حين يكون الطقس ملائماً، تزيح الستارة الرقيقة الزهريّة، تفتح نافذة الشرفة لتحمل لها الرياح الغربيّة عطراً تعرفه، فتنظر إلى أسفل وتبتسم لشتلات زهور البانسيه التي زرعت بذورها وانتظرت ليحصل ما يحصل الآن..

ميريلا تبتسم لزهور البانسيه كما تبتسم للجدار المنقوش، كلّما قرأت لسهراب، تبعثرت روحها كوردةٍ جفّت بين الصفحات.. برغم أنّه لم يهدها واحدة. تبتسمُ وهي تطرق المشط الحديديّ فوق غرزات النسيج داخل عقد السجّادة على النول الخشبيّ. علّمتها جدّتها أن تستغل جلوسها الطويل للحياكة، بالتسبيح.. أعجبتها فكرة أن تذكر الله مع كلّ عقدةٍ وغرزة..

هو هنا بكثافةٍ في ذاك اليوم. تضربُ المشط الحديديّ أكثر من اللازم، لكنّ صورته لا تتلفها الضربات. الذاكرة تطرق هنا بقسوة.. بلا رحمة. ميريلا تبتسم.. لا تشعر بأصابعها! برغم أنّ دقّات قلبها تبدو في تراقصٍ مع حركات المشط. يتوازى خطّ الغرزات تماماً. الأفق الذي تأمّله معها عند غروب ذاك اليوم يشبه هذا الخطّ الصوفيّ. لم يكن موعداً، بل مصادفة مرغوباً بها جدّاً، عند البحيرة الصناعيّة في طهران.. تَحيكُ فيروح داوود ويجيءُ أمامها.. تماماً كسؤالها المهجور عن حقيقة قصتهما. لا قيمةَ للخيال في حياكة نسيج الصوف. القطعة ستكتمل بالعمل، بالصبر. على ميريلا أن تثق، بأنّ الواقعَ خبزٌ والخيالَ تضوُّرٌ.

الآن ومذ عادوا إلى هنا، أمست هذه الشرفة ركنَ لقاءاتها الحافلة بأحاديث لم تكن.

تدعوها أمّها: عندي مشوارٌ إلى البازار الكبير، عليكِ أن ترافقيني، الطقسُ سيعجبُكِ جدّاً!

ترفض ميريلا: لديّ ما أقوم به أمّي. اِجلبي لي معك ذاك السوار النحاسيّ فقط من حجرة الشيخ عرب. أتذكرينه؟

تكفّ الأمّ عن الإصرار. ميريلا لن تبدّلَ قرارَها. برغم أنّ الشيخ عرباً لمّا قال لها إنّ

الرسومات بريشة: مريم ميرزاده

النحاس يناسب مواليد برجها، غيّرت رأيها في مقاطعة الأبراج.. وعادت تلتمس قرّاء الطالع في البازار وقارئات الكفّ.

بقيت ذاك اليوم وحدَها. ترغب في تحديد صورة السماء في إطارها الصغير. زهور البانسيه تعزف لها أسفل الجدار سيمفونيّةً تشبه «الربيع» لفيفالدي».. من الشرفة، كونُها أكبر هنا.

ميريلا تبتسم في شرفتها. عيناه في خضرة الشجرِ البعيد أمامها. صوته في أذنها يهمسُ مع الصمت الذي يصفرُه الريح. قد يكـون الآن نطـقَ ببضعِ كلماتٍ هناك. مثل تلك التي لم يقلها قطّ.. فسمعته.. ميريلا تبتسم كابتسامتها عند البحيرة وهو يختلقُ أدباً اجتماعيّاً يتقرب منها به. ربّما كان مهذّباً في لقاء المصادفة وحسب. ربّما كلّ ما كان من صنيعةِ رأسها.

ميريلا اختارت أن تبتسم. من الشرفة، يبدو طيفُه أوضح. سيمرُّ وجهُه كما تمرُّ الغيوم. ستنتظر. تقولُ جارتُهم إنّ وجهَ ميريلا يبعث على السلام والطمأنينة. تفكّر ميريلا بموضوعيّةٍ تشبه قناعتها بأنّ الوجه مرآةُ الداخل، أيّ سلامٍ في وجهي؟!. برغم ذلك ميريلا تبتسم للمرأة كلّ يوم. تماماً كابتسامتها للسقف في غرفتها أمس، بعد خروج الجارة واستلقاء ميريلا في سريرها محدقة. ليس لأنّها شاردة الذهن. لكنّ أنوثتها تغمرها كلّما شخصت لها ملامح داوود في السقف.. أو خيالها.. لمَ تُحِبُّ أن يسمعَها؟

هو الآن يصغي، وإلّا فكيف لها أن توجّهَ صرختَها فجأةً إلى ما خلفَ حنجرتها.. إلى عمقها الذي يناديه ملتمساً: داوود....داوود..!

لا شك في أنّه سمع! يا لخجلتها! تحمرّ وجنتاها. ذات الشعور اعتراها يوم وضع بين يديها المرتعشتين ديوان سهراب. لا يمكن لكلّ ذاك الشيء أن يكونَ وهماً. يستهلُّ ثغرُها. تتدحرج هذه المرّةَ دمعةٌ على أهدابها. ثمّ تلامس الوسادة. تبتسم أكثر. كأنّها تبصرُ أخيراً دمعته..

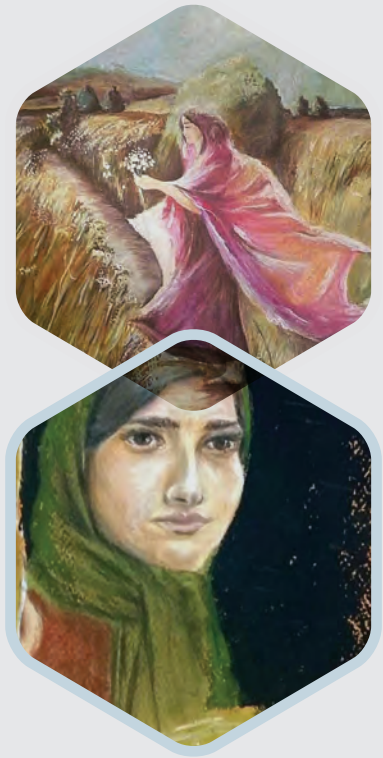

بعد أقلّ من خمسةَ عشرَ دقيقة.. يضيقُ صدرُها. ميريلا منزعجة، متضايقة. من الصرخة؟! من الدمعة؟! من حقل الزهور؟! تحاول أن تعرف وتستعيدَ سلامَها. تفشل! الضيقُ يتزايد. أنفاسُها تتخبّط. ألمٌ في وسط الصدرِ يهزّ جسدها المستلقي. تعجز عن الحراك. ولا أحد هنا.

يواصل الطبيب إحداث الصدمات الكهرَبائيّة فوق الصدر. بعدما رفع باقة البانسيه البنفسجيّ عنه. متوجّهاً إلى الممرضة:

من وضع الباقةَ هنا؟

الممرضة: شابٌّ جاء وحيداً لعيادتها، ثمّ خرج مسرعاً

حسناً فلتضعي هذا النول الخشبيّ خارج الغرفة.. يبدو أنّها تستعيد وعيها، الإشاراتُ إيجابيّة.

دكتور منذ أيّامٍ كانت والدتها تطرقُ على النول الخشبيّ هنا، لاحظتُ حركةً طفيفةً في الأصابع. برغم أنّ الأمّ المسكينة تطرق بالمشط الحديديّ وحسب. ولم تحك عقدةً واحدةً منذ يوم الحادث.

الحادث كان خطيراً.. اصطدامها كان جامحاً عند الرأس.

لكنّ زيارة هذا الشابّ كانت غريبة. جلس عند سريرها يبكي. بكى كثيراً. يبدو أنّ الدموع تخرج من عينيها. أنظر إلى هنا دكتور!

هههه نعم أنا من المؤمنين بأنّ مريض الكوما يشعر بالأمور التي يحبّها.. فلتتصلي بأسرتها..

المسكينة هنا منذ عامٍ ونصف. والدتها تأتي كلّ يوم برفقة جارتهم. ستفرح كثيراً بهذا الخبر.

الممرضة تبكي متأثّرة.. وهي تنزعُ عن معصم ميريلا السوار النحاسيّ الذي حفرت عليه آياتٌ من القرآن. سوف تُجرى لها سلسلةٌ من الفحوص اليوم.

تمسح الممرضة الدمعة. تسرّح لها شعرها. تمسحُ جبينها بعطر المسك.

ميريلا تتنفّس. يتحرّكُ الجفن. تتعرّق الجبهة.

البانسيه البنفسجيّ قربَ رأسها.

وميريلا تبتسم.

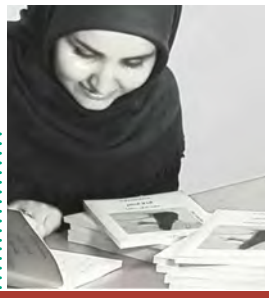

مريم ميرزاده
إجازة في علوم الأحياء من الجامعة اللبنانية
كاتبة ومترجمة ـ إيران